

أبونواس بين مطرقة الحكام و سندان التاريخ

دکتر يوسف هادی پور نهزمی

استادیار دانشگاه آزاد اسلامی (واحد کرج)*

(از ص ۴۷ تا ص ۶۷)

تاریخ دریافت مقاله ۸۹/۰۹/۰۲، پذیرش ۹۰/۰۲/۰۵

چکیده:

تاریخ بشری در تداوم خود شاهد ظهور مردان و زنان بزرگی بوده است که رنجها و آرزوهای بشری را در صفحات تاریخ و روشن آن به نمایش گذاشته‌اند. به همان اندازه که اینان با شجاعت در مقابل سنتهای کهنه و ارتجاعی جامعه خود ایستاده‌اند و در برابر ظالمان قد علم کرده‌اند، سودپرستان عاقبت‌طلب، تلاش کرده‌اند آتش فروزان آنها را خاموش ساخته و شخصیت آنان را وارونه جلوه دهند. چه بسا انسانهای بزرگی که تاریخ چهره آنان را منفور ساخته، و چه بس انسانهای فاسد و ظالمی که از آنان به نیکی یاد نموده است. یکی از این مردان بزرگ، ابونواس، شاعر بزرگ ایرانی است که در عصر اول عباسی، در قرن دوم هجری می‌زیست. او با نبوغ فراوان خود توانست آرا و اندیشه‌های مترقی خود را در قالب شعر خمیری عرضه کند و بر سنتهای قدیمی و ناروا بشورد. او در این راه تهمت‌ها بسیار شنید و زندانها بسیار کشید.

مقاله حاضر بر آن است با مطالعه مجدد و بازخوانی زندگی و شخصیت علمی و ادبی ابونواس، با استفاده از مراجع و مصادر مهم تاریخی، شخصیت حقیقی و واقعی او را نمایان سازد و هاله‌های ابهام را از او بزداید و راه را برای درک و فهم خمیریات او، که از مهمترین و جاودانه‌ترین اشعار عربی می‌باشد همواره سازد.

واژه‌های کلیدی: الحسن بن هانی، ابونواس، الشعر الخمری، الشعوبیة، التجدید.

المقدمة

إن المتتبع لأخبار أبي نواس وأحواله يواجه أخباراً متضاربة وآراء متباينة في تناول شخصيته ومعالجة خمرياته، بحيث لا يتاح له التعرف الصحيح علي حقيقة أمره وحقيقة شعره الخمرى.

فقد أجمع غالبية الذين كتبوا عن سيرته وشخصيته علي أنه كان عابثاً، ماجناً، فاسقاً، خليعاً كل الخلاعة، و من جانب آخر يؤكدون علي أنه كان عالماً بارعاً، و حافظاً للقرآن الكريم، و بصيراً باختلاف القراءات، و عارفاً بناسخه و منسوخه، و بحكمه و متشابهه، كما كان متكلماً جديلاً فهماً، فكاد يكون إماماً من أئمنه وكان متبحراً في علم النجوم و الطبيعيات، كما كان راوية فحلاً بحيث روي عنه الكثيرون من الفقهاء و أصحاب الحديث، وكان فقيهاً عارفاً بالأحكام و الفتاوي، و صاحب الحفظ و المعرفة بطرق الحديث، كما كان شاعراً مجيداً.

فلو سلمنا بما روى عنه من إمام هذه العلوم، وسعة الإطلاع، و الثقة و الإطمئنان، فليس من المعقول أن نقبل القصص المختلفة حول مجونه السافر و مجاهرته بالفجور بتلك الصورة الصارخة التي تحدث عنها البعض من أصحاب التواريخ.

ولكى يتاح للباحثين التعرف بشكل متكامل علي حقيقة أمره وحقيقة معاني شعره الخمرى، فلا بد من إمامة ولو عابرة علي حياة الشاعر التي قضاها في ظل ظروف سياسيّة بالغة التعقيد و حكومة جائرة تأخذ من الإسلام غطاءً لتبرير أعمالها.

اسمه و نسبه و كنيته:

«هو الحسن بن هانىء بن صباح بن عبدالله بن الجراح» (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٧، ص ٤٣٦) و يقال: هو الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن الصباح مولى الجراح و كنيته أبونواس. سئل عن كنيته و ما أراد بها و من كئاه بها، وهل هو نواس أو نواس، فقال: نواس،

جَدَن، يَزَن، كَلان و كَلاع أسماء جبال ملوك حمير والجبل الذي لهم يقال له: نُواس.
(ابن خَلكان، ج ١، ص ٣٧٣)

«وكانت كنيته الأصلية أبا على و إنما كان يشتهى أن يلقب بأبي نواس لشهرته و أنه من
أسماء ملوك اليمن». (ابن منظور، أخبار أبي نواس، ص ١٠)

فيما يتعلق بأبيه «هانيء» «فقد قيل عنه»: كان أبو أبي نواس حائكاً و قيل: كان من جند
مروان بن محمد - آخر خلفاء بني أمية - من أهل دمشق و كان فيمن قدم الأهواز في أيام
مروان للرباط والشحنة، فتزوج بجلبان. (ابن منظور، مختار الأغاني ج ٣، ص ٨)

أمّا أمّه «جلبان فكانت من بعض مدن الأهواز» (ابن المعتز، صص ١٩٣-١٩٤) فليس
صحيحاً قول بعض المؤرخين القائلين بأنه كان من أبوين فارسيين ومنهم حنا الفاخوري.
(انظر حنا الفاخوري. ص ٦٩٢)

مولده و نشأته:

اختلف الرواة في مولده و هو يتراوح بين سنوات مائة و ست و ثلاثين حتّى مائة و تسع و
أربعين. و قد ورد في كتاب طبقات الشعراء: «ولد بالأهواز، بالقرب من الجبل المقطوع المعروف
براهبان سنة تسع و ثلاثين و مائة». (ابن المعتز، ص ١٩٣)

قد جمع ابن منظور كل هذه الروايات في كتابه من دون أن يخرج منها بنتيجة قائلًا: «كان
مولده في سنة ست و ثلاثين و مائة و قيل: سنة خمس و أربعين و قيل: سنة ثمان و أربعين و
قيل: سنة تسع و أربعين». (ابن منظور، أخبار أبي نواس، ص ١٢)

فقد الحسنُ في السنة الثانية أو السادسة من عمره أباه، فنقلته أمّه إلى البصرة لضيق العيش
في الأهواز حسب رواية طبقات الشعراء: «مات والده هانيء و أبونواس صغير فنقلته أمّه و هو
ابن ستّ سنين». (ابن المعتز، ص ١٩٤)

وقيل أيضاً: «كان في السنة الثانية من عمره و أن أباه نقله إلى البصرة من الأهواز.»
(ابن خلكان، ص ٣٧٣)

فلا شكّ في أنّه ولد بالأهواز ثم انتقل إلى البصرة، لكن الخلاف فيمن نقله إلى البصرة.
أوالده أم والدته؟ وكم كان عمره آنذاك؟

والواضح أن أباه لم يعيش طويلاً. فقد الحسنُ أباه و ظلّ يتيماً في كنف أمّه جليان «فأسلمته
الأم إلى الكتاب ليتعلم القراءة والكتابة.» (ابن المعتز، ص ١٩٤)

ولما شبّ الفتى رغب في العلم و الأدب و تعلّق بالشعر. و لكنّ الحياة كانت صعبة، وكان
الزمان قاسياً. فأسلمته الأم إلى بعض العطارين ليعمل في النهار و حينما فرغ عن العمل يذهب
إلى المسجد و يحضر في حلقات الدرس. كما ذكر ابن منظور نقلاً عن الجاحظ: «لما شبّ
أسلمته أمّه براءً يبرى عود البخور.» (ابن منظور، أخبار أبي نواس، ص ١٥) فظلّ الحسن مدة
علي هذه الحال: العمل عند النهار و الحضور في حلقات الدرس عند المساء. «فلما ترعرع
خرج إلى الأهواز، فانقطع إلى والبة بن الحباب الشاعر.» (ابن المعتز، ص ١٩٤)

وقد تضاربت الآراء حول كيفية اتصاله بوالبة بن الحباب و مكانه ولكن لا شكّ في أصل
هذا الاتصال سواء كان في الأهواز أم في البصرة، ولكنّه قدم معه الكوفة و شارك في مجالس
الشعر و مجالس اللهو و المجون أحياناً ولكنه ما كان في سنّ يفرض فيها علي نفسه، إذ إنّ: «أكثر
الناس علي ترجيح أنه حين لقي والبة كان في حدود الثلاثين من سنه.» (الأثرى، مقدمة تفسير
أرجوزة أبي نواس، ص ٦٠) و من ثمّ «واصل هذا النوع من الحياة - أي حياة العبث و المجون
- مدة قليلة ثم أدرك بأنها ليست مناسبة لشأنه، فتركها و ذهب إلى البادية و أقام عند قبيلة
بنى أسد ليفصح لسانه.» (صدقي، ص ٤٢)

واستأنف بعد رجوعه من البادية حياة الدرس و التحصيل في البصرة و تتلمذ علي خلف الأحمري في الشعر. و سلك خلف طريقاً آخر في تخريجه غير طريق والبة و «أمره خلف أن يحفظ كثيراً من القصائد و الأراجيز لفحول الشعراء و الرجّاز، فحفظ ما أمره و امتحنه خلف امتحاناً عسيراً شاقاً.» (ابن منظور، أخبار أبي نواس، ص ١٥)

فنبغ في الشعر أكثر فأكثر و هذه الفترة هي نقطة التحول في حياته إذ إنه كشف فيها قدراته في نبيل الشهرة «فلا عجب إذ رأينا شاعرنا أبانواس وقد أتم علمه و استوفى فيه يبادر إلى بغداد، عروس المدائن.» (الأثرى، ص ٦٢)

ولقد كانت أمور الخليفة كلّها في ذلك الحين إلى وزرائه البرامكة و هم أهل العلم و الشعر و المعرفة، فنظم في كبيرهم، يحيى بن خالد البرمكي، و أيضاً في الفضل بن يحيى:

رأيتُ لفضلٍ في السماحةِ همّةً أطالت لعمري غيظ كل جوادِ
ترى الناس أفواجاً إلى باب داره كأنهم رجلا دبّى وجرادِ
حتى يقول:

بفضل بن يحيى أشرقت سبل الهدى وآمن ربّي خوف كل بلادِ
(أبونواس، صص ٤٧٢-٤٧٣)

غضب الرشيد علي البرامكة لخوفه منهم و سجن أبونواس عدة مرات فأصبحت بغداد مكاناً غير آمن له من بعد نكبة البرامكة، فانصرف إلى مصر ليمدح أميرها أبا النصر الخنصيب صوناً من حوادث الدهر في بغداد و رغبة في عطايا الخنصيب. كما يشير إلى هذه القضايا في قصيدته المعروفة عند رحلته إلى مصر حيث يقول:

تقول التسي عن بيتها خفّ مركبى عزيزٌ علينا أن نراك تسيّرُ

أما دونَ مصرٍ لِلغنى مُتطلبٌ بَلَى إنَّ أسبابَ الغنى لكثيرُ
(أبونواس، ص ٤٨١)

و قد مدح الخصب خلال هذه القصيدة و قصائد أخرى فأنعم الخصب عليه و أغدق، فلبث هناك حوالي سنة حتى نهاية حكم الخصب، وكانت آلام الهجرة و البعد عن الأسرة تعصر قلبه، فقرّر مغادرة مصر و الرجوع إلى بغداد. كما يقول في ذلك:

ذكر الكرخ نازحُ الأوطانِ فَصَبَا صَبْوَةً وَلاتَ أوانِ
ليس لى مسعدٌ بمصر على الشو ق إلى أوجهٍ هناك حِسانِ
نازلاتٍ من السراة فـكرخا يا إلى الشطّ ذى القصور الدوانى
إلى أن يبشّر ابنته بالإسراف فى كل شىء و الإنفاق، على أنّه عائد إليها بالمال الكثير:
يا ابنتى أبشّرى بميرة مصرٍ وتمنّى و أسرفى فى الأمانى*
(أبونواس، صص ٤٧٦-٤٧٧)

فعاد إلى بغداد بعد نهاية ولاية الخصب، سنة ١٩١ للهجرة، ولكنه رأى تحوّلاً كبيراً فى أوضاع البلاد و فى أحوال الرشيد كما يقول:

وعدتُ إلى العراق برغم أنفى و فارقتُ الجزيرةَ والشّاما
على شطّ الشّام و ساكنيه سلامٌ مُسلمٌ لقيّ الحِماما
(أبونواس، ص ٢٥٠)

وقيل إنّه: «واجه سخط الرشيد إذ أثاره الموتورون منه بما أحفظه عليه ودعاه إلى سجنه الذى طال إلى أن آلت الخلافة إلى الأمين.» (الأثرى، ص ٦٥)

*. والعجيب أن بعض الباحثين ينكرون أن تكون له حياة أسرية

و قيل: «حُبس أبونوس بما ذكر عنه من الزندقة و لم يزل محبوساً فى حبس الزنادقة حتى مات الرشيد و قام الأمين.» (ابن منظور، أخبار أبى نواس، ص ٢٩٩) بقى فى سجن الزنادقة أكثر من سنتين، فتوسط له الفضل بن الربيع - وزير الأمين - فأطلقه الأمين وجعله نديماً و شاعراً له حيث يقول:

إنى أتيتكم من القبر والناس محتبسون للحشر
لولا أبوالعباس* ما نظرت عيني إلى ولدٍ ولا وفرٍ
(أبونواس، ص ٤٦١)

سجن أبونواس عدة مرّات فى أيام الأمين، و هذا ما تحدث عنه فى أبيات له:

مضت لى شهرٌ مذ حُبستُ ثلاثة كأنى قد أذنبتُ ما ليس يُغفرُ
فإن كنتُ لم أذنبُ ففيمَ حبستنى وإن كنتُ ذا ذنبٍ فعفوك أكبرُ
(أبونواس، ص ٤٢٦)

و واضح فى كلامه أنّ الأمين غضب عليه بشدة حتى أراد قتله:

بك استجيرُ من الردى وأعوذ من سطواتِ بأسِك
وحياة رأسك لا أعو دُلمثلها... وحياة رأسك
من ذا يكون أبونوا سك إن قتلت أبانوا سك
(أبونواس، ص ٤٢٤)

كما يقول ابن منظور: «غضب عليه الأمين و أمر به إلى السجن» (ابن منظور، أخبار

أبى نواس ص ٧)

وفي هذه الفترة اشتدت الحرب بين الأمين و المأمون. فما لبث أن تغلب المأمون على الأمين، فقتل الأمين في محرّم سنة ١٩٨هـ ورثاه أبونواس بأصدق أبيات، كما يقول طه حسين: و «أنا أزعّم أنّ أبانواس لم يصدق في رثائه إلاّ مرّة واحدة، وذلك حين رثى الأمين.» (حسين، ج٢، ص١٣٣. أبونواس، ص ٥٨١)

ولم يعيش أبونواس طويلاً بعد ذلك إذ توفّي بعد أشهر من موت الأمين أو على الأكثر بعد سنة واحدة منه وقد اختلف الرواة في سنة وفاته. كما اختلفوا من قبل في سنة ولادته و في كل شأن من شؤونه. و يقال: «إنه مات سنة ستّ و تسعين و مائة و قيل: مات ببغداد في سنة خمس و تسعين و مائة و كان عمره تسعا و خمسين سنة و دفن في مقابر الشونيزية في تلّ اليهود.» (الخطيب البغدادي، ج٧، صص ٤٤٨-٤٤٩)

و قد ذكرت خمسة تواريخ متتابعة عن وفاته، آخرها سنة ١٩٩ هـ وهي الراجحة، ومؤرخوه مجموعون في غالبيتهم علي أنه مات و عمره تسعة و خمسون عاماً و دفن في المقابر الشونيزية «(الشونيزية مقبرة ببغداد بالجانب الغربي، دفن فيها جماعة كثيرة من الصالحين، الحموي، ج٣، ص٣٧٤) في تلّ اليهود ببغداد. و قد رثاه صديقه و رفيق صباه، الحسين بن الضحّاك، بقوله:.

نازعنيك الزّمان يا حسنُ فخابَ سهمي و أفلحَ الزمنُ
ليتّك إذ لم تكن بقيت لنا لم تبّق روحٌ يحوُّطها بدنُ
(صدقي، ص ٢٦٣)

شخصيته و أدبه:

كان أبونواس حسنَ الوجه، رقيق اللون، أبيض، حلو الشمائل حسن الجسم و كان ألثغ بالراء. و قال الجاحظ فيه: كان نحيفاً، في حلقة بحّة لا تفارقه وكان إذا دخل حلقة الدرس، التفت القوم إلى حسنه و حداثة سنّه و ذكائه و قوة تحصيله. قرأ القرآن علي يعقوب الحضرمي

- إمام القراء - فلماً حدّق القراءة رمي اليه يعقوب بخاتمه وقال: «إذهب فأنت أقرأ أهل البصرة» (ابن منظور، أخبار أبي نواس، صص ١٢-١٥). أخذ علي أبي زيد الأنصاري اللغة، و علي خلف الأحمر معاني الشعر، و علي عبيدة معمر بن المثنى أخبار العرب وأيام الناس. و قرأ الفقه فأتقن الأحكام و الفتيا، و طلب الحديث و رواه عن كبار ثقاته، و طلب علوم القرآن فعرف ناسخه و منسوخه و محكمه و متشابهه. و جالس أصحاب الكلام و أخذ علمهم و ناظرهم و كان جدلاً فهماً، فكاد يكون إماماً من أئمة... و عنى بعلوم الأمم المنقولة، فاطلع علي علم النجوم و الطبيعيات و ألمّ بخرافات اليونان و الفرس و الهند و حفظ ما لا يحصي من أشعار العرب القدماء و المحدثين. قرأ ديوان ذى الرمة علي الناشء. «الأثرى، صص ٥٨-٥٩»

و قال فيه ابن منظور: «كان أبونواس متكلماً جدلاً، راوية فحلاً، رقيق الطبع، ثابت الفهم في الكلام اللطيف. و يدلّ على معرفته بالكلام أشياء من شعره.» (ابن منظور، أخبار أبي نواس، ص ٢١)

و هكذا ورد في كتاب طبقات الشعراء: «كان أبونواس عالماً فقيهاً، عارفاً بالأحكام و الفتيا، بصيراً بالاختلاف، صاحب حفظ و معرفة بطرق الحديث. يعرف ناسخ القرآن و منسوخه، محكمه و متشابهه. وقد تأدّب بالبصرة، و هي يومئذ أكثر بلاد الله علماً و فقهاً و أدباً، و كان أحفظ لأشعار القدماء و المخضرمين و أوائل الإسلاميين و المحدثين.» (ابن المعتز، ص ٢٠١)

و حدّث يوسف بن الداية قال: «قال أبونواس أحفظ سبعمائة أرجوزة و هي عزيزة في أيدي الناس، سوي المشهورة عندهم ثم أخذ في قول الشعر فبرز علي أقرانه و برع علي أهل زمانه فصار مثلاً في الناس، و أحبّه الخاصة و العامة و كان يهرب من الخلفاء و الملوك بجهد و يلام علي ذلك.» (المصدر نفسه، ص ٢٠١)

و قال المجاحظ فيه: «ما رأيتُ أحداً كان أعلم باللغة من أبي نواس، ولا افصح لهجة، مع حلاوة و مجانبة الاستكراه» (ابن عساکر، ج ٤، ص ٢٥٥) و قال فيه أبو هفان: «كان أبو نواس أدبَ الناس وأعرفهم بكلِّ شعر». (ابن المعتز، ص ١٩٤) و قال أبو عمر الشيباني فيه: «لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرفث لاحتججنا بشعره لأنه محكم القول.» (المصدر نفسه، ص ٢٠٢)

وقال أبو عبيدة فيه: «كان أبو نواس للمحدثين مثل امرؤ القيس للمتقدمين قال فيه أيضا: ذهبت اليمن بجذ الشعر و هزله: امرؤ القيس بجده و أبو نواس بهزله. وكان يقول ذهبت اليمن بجيد الشعر في قديمه و حديثه. امرؤ القيس في الأوائل و أبو نواس في المحدثين:» (ابن منظور، أخبار أبي نواس، صص ٣٨-٣٩)

و في حرصه علي العلم تكفينا هذه الرواية عن قول أبي هفان حيث يقول: «قال لي أبو نواس: الشره في الطعام دناءة، وفي الأدب مروءة. وكل من حرص علي شيء فاستكثر منه سكن حرصه و قرّت عينه غير الأدب، فإنه كلما ازداد منه صاحبه ازداد حرصاً عليه و شهوةً له و دخولاً فيه.» (ابن المعتز، ص ٢٠٤)

و هذا هو أبو نواس يتكلم عن نفسه وشعره: «لا أكاد أقول شعراً جيداً حتى تكون نفسي طيبةً و أكون في بستانٍ مونق و علي حال أرتضيها من صلة أوصل بها أم أوعد بصلة. وقد قلتُ و أنا علي غير هذه الحال أشعاراً لا أرضاها.» (ابن منظور، أخبار أبي نواس ص ٤١)

نراه يؤكّد علي طيب النفس في حال قول الشعر. و خلاصة الكلام فيه هي أن: «شاعرنا لم يكن رجلاً ما و إنما كان رجلاً يقدره أهل عصره و يكبرونه في كل ما عرض له من الفنون أنه أرق الناس أدباً و أحسنهم شعراً.» (حسين، ج ٢، ص ٤٥) فأين من هذا، أبو نواس العابت المستهتر و الذي كيل له من الاتهامات و أشيع عنه من الروايات ما يبرزه فاسقاً، فاجراً لا همّ له سوى الإقبال على الملهذات و ارتكاب المحارم؟

ولكنّ السؤال الذى لا بدّ لنا من طرحه هو: لماذا ترسّخت صورة أبى نواس الماجنة المستهترّة فى أذهان الناس ولم تترسّخ صورة أبى نواس المعروفة بالأدب والمعرفة؟ مع أنه مشهود بأنه كان من كبار رجال العلم و الأدب و الحديث فى عصره، كما رأينا و ذكرنا أقوال العلماء و المؤرخين فى ذلك. و مردّد ذلك إلى بعض المحاولات التشهيرية ضده.

حملة التشهير ضد أبى نواس:

واجه أبونواس عدداً كثيراً من حملات التشهير والتشكيك من جوانب شتى تختلف

غايات هذه الحملات ومراميها:

الاتّجاه الأوّل: يتعلّق باتّجاهه الفكرى و الأدبى و بمذهبه الجديد فى الشعر الذى تمثلت فيه ثورته على منهج القصيدة و النظام الشعرى القديم، فخالفه الشعراء الذين كانوا يحافظون على المنهج القديم و بثّوا دعايات كثيرة ضده. الاتّجاه الثانى: يتعلّق بعدد من الشعراء المعاندين له، و الذين لهم موقفهم الصريح المؤيد للحكم العباسى و المعارض لآل البيت. و من هؤلاء الشعراء: مروان بن أبى حفصة، و سلم الخاسر، و الرقاشى و أبان بن عبد الحميد اللاحقى، شاعر البرامكة. الاتّجاه الثالث: مدعوم بالخلفاء و الأمراء و الوزراء، و الذين كان لهم وّضعهم الطبقي و الاجتماعى الخاص إلى جانب ما يتمتّعون به من نفوذ سياسى، و فى الحقيقة كانت لهم شخصيتان: الأولى هى الشخصية الرسمية عند الناس تحافظ على العفة و الطهارة و الرزانة. و الثانية شخصية عابثة ماجنة تظهر فى خلواتهم. هؤلاء إذا حضروا مجالس الأُنس و الطرب مع العلمان و الجوارى و المغنّين، جادت قريحتهم بشعر مُسفّ فاحشٍ نسبوه إلى أبى نواس خوفاً من قدرهم و موقعهم الاجتماعى و السياسى، و «العامة الحمقى قد لهجت بأن تنسب كل شعرٍ فى المجون إلى أبى نواس و ذلك غلط.» (ابن المعتز، ص ٨٨)

الاتّجاه الرابع: و هو تهرب أبى نواس من هذه المجالس الرسمية لاتّجاهه الفكرى و العقيدى و

الدينى. وهذا هو أبونواس يقول: «إنما يصبر على مجالسة هؤلاء الفحول المنقطعون الذين لا ينبعثون ولا ينطقون إلاّ بأمرهم. والله لكأئى على الثار إذا دخلت عليهم حتى انصرف إلى

إخواني و من أشاربه، لأنني إذا كنتُ عندهم فلا أملك من أمرى شيئاً.» (ابن المعتز، ص ٢٠٢) و تتضح لنا مسائل كثيرة عند التعمق في هذا القول. وهذا قول أبي نواس حيث يقول: «لا أكادُ أقول شعراً جيداً حتى تكون نفسي طيبة.» (ابن منظور، أخبار أبي نواس، ص ٤١) كان الخلفاء و الأمراء يتمنون أن يكون أبو نواس في بلاطهم و يتقرب إليهم. ولكنه كان بمعزل عن البلاط و كان ميله إلى الناس و ميل الناس إليه: «فصار مثلاً في الناس وأحبّه الخاصة والعامة.» (ابن المعتز، ص ٢٠١) و «لم يكن شاعر في عصر أبي نواس إلا وهو يحسده لميل الناس إليه و شهوتهم لمعاشرته و لبعده صيته و ظرف لسانه.» (ابن منظور، أخبار أبي نواس ص ٤١) و لا يخفي علي الباحث ميله إلى الشعبوية و ذلك كله مما لا يؤهل شاعراً بأن يكون قريباً من الخلفاء و الحكام.

الاتجاه الخامس: هذا هو ما عاناه كثيراً و سبب أن تكثر الأقوال فيه كما جاء في أحواله: «كان دمتاً، لطيفاً، ظريفاً، حلوا المعشر، حسن الوجه، رقيق اللون، أبيض، حلوا الشمائل، ناعم الجسم.» (ابن منظور، أخبار أبي نواس، ص ١٥) و كان «فصيح اللسان، لطيف المنطق، مليح الإشارة، و ظرفه كان من أهم ما تتميز به شخصيته.» (ابن المعتز، ص ٢٠١)

ولعل اتجاهه هذا إلى الهزل و الدعابة إلى جانب ما تمتع به من جرأة و حرية في قول ما كان يخطر بباله، جعل الكثيرين ينسبون إليه النوادر و السلوك الماجن و الشعر الفاسق. و لهذا نرى في ديوانه كثيراً من الأبيات لا تحمل خصائص أبي نواس. و لكن ظرفه و هزله كان أشد من الجد، و الجد المخبوء تحت الهزل هو أشد من الجد الظاهر. وهو الذي يقول عن نفسه: «و أمّا المجون، فما كل أحد يحسن أن يمجن، و إنما المجون ظرفٌ و لست أبعُد فيه عن حدّ الأدب. و لا أتجاوز مقداره.» (المنظور، مختار الأغاني، ج ٣، ص ٢٠١) و يؤكد هذا القول قوله الآخر ممّا نقله محمد بن أبي عمير: «سمعتُ أبا نواس يقول: والله ما فتحتُ سراويلي لحرام قطّ.» (ابن عساكر، ص ٢٦٤)

دينه و مذهبه:

يحيط بحياة أبي نواس غموض كثيرة ولا سيّما من الناحية الدينية. وكان يُتهم بكل مذهب و منه «الزندقة» و سجن عدة مرات بهذه التهمة كما رأينا. و«كان يُتهم برأى الخوارج». (ابن المعتز، ص ١٩٥) و«ذكر صاحب كتاب الورقة جماعة من الشعراء في طبقة أبي نواس و من قبله، و وصفهم بالزندقة. و سرائر الناس مغيبة و إنما يعلم بها علّام الغيوب و كانت تلك الحال تكتم في ذلك الزمان خوفاً من السيف». (المعري، ص ٢١٥)

ومنهم من يعتقد بتشيع أبي نواس، و من الدلائل الهامة التي تشير إلى تشيع أبي نواس، ما قاله أبو العلاء المعري عنه حين يقول: «ولا ارتابُ أنّ دعبلأً كان على رأى الحكيمى (أبى أبونواس) وطبقته، والزندقة فيهم فاشية و من ديارهم ناشئة.» (المصدر نفسه، ص ٢٠٧) و يقول في موضع آخر: «وقد اختلف فى أبى نواس. أدعى له التآله و أنّه كان يقضى صلوات نهاره فى ليله، و الصحيح أنّه كان على مذهب غيره من أهل زمانه.» (المصدر نفسه، صص ٢٠٧-٢٠٨)

وأما ما ذكرناه من كلام أبى العلاء على طريقته فى الشك، فإننا إن نظرنا بدقة فى قوله تبين لنا، أولاً أنه لا يؤيد زندقة أبى نواس بل يؤيد تشيعه حيث يقول، أنه لا يرتاب فى أنّ دعبلأً - أى دعبل بن على الخزاعى كان على رأى الحكيمى. و لا يخفى علينا تشيع دعبل و إخلاصه لآل البيت و شعره الصادق فيهم.

و أما قوله: «و الصحيح أنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه»، يدل على سلوكه و كيفية تعامله و مواجهته القضايا السياسية و الدينية فى تلك الفترة و بالطبع فقد كان مختلفاً عن الآخرين. على أنه اتخذ موقفاً خطيراً إزاء تلك القضايا، وكان للتظرف و التظاهر بالمجون و إظهار المجنون دوراً خاص فى ذلك الزمان خوفاً من السيف كما أشار المعري فى كلامه و تؤكدّه إحدى قصائد أبى نواس التى تزخر بجوانب كثيرة مما أشير إليه هنا يقول فيها:

خَلَّ جَنَيْكَ لِـرَامٍ وَاَمْضِ عَنْهُ بِسَلَامٍ
مُتَّ بِدَاءِ الصَّمْتِ خَيْرٌ لَكَ مِّنْ دَاءِ الْكَلَامِ
رَبِّمَا اسْتَفْتَحْتَ بِالْمِزْ حِ مَغَالِيْقِ الْحِمَامِ
رُبَّ لَفْظٍ سَاقٍ آجَا لَنْ نَيَّامٍ وَقِيَّامِ
إِنَّمَا السَّالِمُ مِنْ جَمِّ فَهَاهُ بِلْجَامِ
أَلـ

فَالْبِسِ النَّاسَ عَلَى الصِّ حَّةِ مِنْهُمْ وَالسَّقَامِ
وَعَلَيْكَ الْقَصْدَ إِنَّ أَلـ قَصْدَ أَبْقَى لِلْحُمَامِ
شَبْتًا يَا هَذَا وَمَا تَتـ سُرُّ أَخْتِلاقِ الْغُلَامِ
وَالْمَنَايَا أَكْبَلَاتُ شَارِبَاتٍ لِـلْأَنَامِ!
(أبونواس، ص ٦٢٠)

هل يوجد كلام أفصح من هذه الأبيات لبيان الخوف في تلك الفترة؟ ينصح الناس ألا يتكلموا بالجد، بل بالمزح. وهو يستفتح مغالبق الموت بالمزح، و ينصح بالصراحة و بالتأكيد:

إِنَّمَا السَّالِمُ مِنْ أَلـ جَمِّ فَهَاهُ بِلْجَامِ

ويقول: العاقل هو الذي يقتصد في الكلام، و بالطبع هو الكلام المخالف للحكم و يشير إلى المنايا التي تنتظر أكل الناس.

كما يقول في مكان آخر:

هَذَا زَمَانُ الْقُرُودِ فَاخْضَع وَكُنْ لَهُمْ سَامِعًا مَطِيْعًا

(الديوان، ص ٥١٩)

انتماؤه إلى الشعبوية:

كان العرب يزدرون الموالي و يفتخرون بكل ما هو عربي، و لاسيما أيام الأمويين. فواجهت الأمم المختلفة آلاماً كثيرة من جراء هذا الازدراء. فلما حدثت الثورة العباسية و ضعفت السلطة العربية، قامت جماعة من الشعراء والأدباء المنحدرين من أصول فارسية يقولون بتساوى الشعوب و عدم تفضيل أمة علي أخري استدلالاً بالآية القرآنية:

*يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثي و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم (الحجرات: الآية ١٣)

ولكن ما لبث أن تحولت هذه الفكرة إلى الخط من شأن العرب، و الطعن في أخلاقهم وآدابهم، و التثوية بفضائل الإيرانيين و غيرهم من الشعوب التي كانت لها حضارة قديمة. وقد ألقت كتب كثيرة في ذم العرب وبيان انحطاطهم، كما ألقت كتب أخرى في فضائل الفرس و غيرهم من الأمم غير العربية. وقد كان للشعوبية هذه دور كبير في تاريخ الأدب، كما كان لها دور مهم في السياسة العربية في العصر العباسي.

فإذاً كانت الشعوبية مذهباً سياسياً و إنسانياً في ذلك الوقت وبإمكاننا أن نقول: «إن الشعوبية ليست عقيدة، بل هي نزعة تشبه أن تكون محاولة ديمقراطية تحارب أرسطراطية العرب.» (أمين، ج ١، ص ٥٨)

جاء في العقد الفريد: «الشعوبية هم أهل التسوية» وفي الصحاح: «الشعوبية فرقة تفضل العرب على العجم» «وفي اللسان:» الشعوبية هو الذي يصغر شأن العرب ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم.» (المصدر نفسه، ص ٥٥)

إن ما جاء في لسان العرب في معنى الشعوبية يدل على تحول هذه الحركة المدافعة عن تساوى الأمم إلى الخط من شأن العرب كما ذكرناه آنفاً. و تلك هي الشعوبية العنصرية، و غايتها تعظيم الفرس و حضارتهم و مقاومة ما كان قد نشأ في نفوس العرب من قبل، من روح التفوق والاستئثار بالمجد. و قد قام من هذين الفريقين جماعة يناضلون عن مذهبهم ويرمون خصومهم بأليم سهامهم. نذكر من الفريق العربي ابن قتيبة و المحاظظ و من الفريق الشعوبية أبا عبيدة و سهل بن هارون.

و فيما يتعلق بشعوبية أبى نواس يقول ابن رشيق: «و كان أبونواس شعوبى اللسان ولا أدري ما وراء ذلك.» (ابن رشيق القيرواني، ج ١، ص ١٥٥)

كلمة ابن رشيق «شعوبى اللسان» تفيدنا دعوته إلى الشعوبية دون إضرار البعض لشعب آخر و دون أن يدل على الشعوبية العنصرية. فلماذا نراه كان ملازماً للفضل بن الربيع و الخليفة

الأمین و هما یمثلان العصبية العربية في ذلك الوقت. و رأينا فخره باليمنيين و القحطانيين و هجاءه للنزاريين في الكثير من أشعاره.

و في حين يهجو اليمنيين كقوله في هجاء هاشم بن حديج، و هو كندی من صميم اليمن حيث يقول:

يا هاشمُ بن حُديجٍ لو عددتُ أباً مثل القلمس لم يعلّق بك الدنسُ
(أبونواس، ص ٥٥٢)

و القلمس أحد رؤساء كنانة و هو من غير اليمن كما هو معروف. و في هذه القصيدة يعدّد كرماء نزاريين و يفتخر بهم؛ و من جانب آخر نراه «كان يأخذ العلم عن أبي عبيدة و يمدحهُ و يذمّ الأصمعي» (المقدسي، ص ١٠٧) و نعلم بأن أبا عبيدة كان شعوبيا و الأصمعي عربياً متعصباً للعروبة.

و نراه في مقارنته لحضارة العرب بحضارة الإيرانيين الغابرة يفتخر بحضارة الإيرانيين حيث يقول:

دَع الرّسمَ الَّذِي دَنَرَا يُقاسى الرّيحَ وَالْمَطْرَا
وكن رجلاً أضاع العد مَ في اللذاتِ وَالخَطْرَا
ألم تر ما بنى كسرى وسابورٌ لِمَن غَبْرَا
(أبونواس، ص ٥٥٧)

إلى آخر القصيدة حيث يذمّ أهل البادية رجالاً و نساءً و شعره يدلّ علي شغفه بتاريخ الفرس و إناقة الحضرة و نفوره من الحياة البدوية التي كان يتغنى بها الأقدمون و من ذلك أيضاً قوله:

عاج الشقى على دارٍ يُسائلها وُعجتُ أسألُ عن خمارة البلدِ
لا يُرقىءُ الله عيني من بكى حجراً و لا شفى وجد من يصبو إلى وتدِ
قالوا ذكرت ديار الحى من أسدٍ لا درّ درك قل لى من بنو أسدِ

ومن تميمٌ و من قيسٍ و إخوتهم
ليس الأعرابُ عندَ الله من أحدٍ
(أبونواس، ص ٤٦)

وأيضاً مما يشعر بميله إلى الفرس و انحرافه عن مذاهب العرب قوله فى قصيدته:
دَعِ الْأَطْلَالَ تَسْفِيهَا الْجَنُوبُ وَثُبْلِي عَهْدَ جِدِّ تَهَا الْخَطُوبُ
وَ خَلِّ لِرَاكِبِ الْوَجْنَاءِ أَرْضاً تَخُبُّ بِهَا النَّجِيئَةَ وَالنَّجِيبُ
بِلَادَ نَبْتِهَا عَشْرٌ وَطَلْحٌ وَ أَكْثَرُ صَيْدِهَا ضَبْعٌ وَذَيْبُ
وَ لَا تَأْخُذْ عَنِ الْأَعْرَابِ لِهَوَاً وَ لَا عَيْشاً فَعَيْشُهُمْ جَدِيدُ
ثم يصف خشونة عيشتهم و يقارن ذلك بصفاء العيش فى الحضارة الفارسية و التمتع بمواهبها، إلى أن يقول:

فهذا العيشُ لا خيمُ البوادي
فأين البدو من إيوانِ كسرى
وهذا العيشُ لا اللبنُ الحليبُ
وَأَيْنَ مِنَ الْمِيَادِينِ الزُّرُوبُ
(أبونواس، صص ١١-١٢)

«وكذلك يمدح البرامكة مرة و يهجوهم تارة أخرى.» (أبونواس، صص، ٤٧٠ و ٤٧٤ فى مدحهم. و فى هجوهم ص ٥١٩) ملخص القول أنه نراه، يفضل الفارسى على العربى تارة، و يفضل العربى مرة على الفارسى و اليمنى على الزنارى و مرة أخرى الزنارى على اليمنى. و نراه يسخر من العباسيين الملتفتين إلى الجاهليين و كان يسخر أيضاً من أولئك الذين يبدلون أنسابهم حسب الظروف. فهذا الفضل الرقاشى المولى، رآه أبونواس يتنكر لأهله و يستعرب، فهزه هذا النفاق اشمزازاً فقال:

قلتُ يوماً للرقاشى
ما الذى نجّاك عن أصـ
وقد سبّ الموالى:
لك من عـمّ وخالٍ
قال لى: قد كنتُ مولىً
زمناً ثمّ بدّالى
أنا بالبصرة مولىً
عربىُّ بالجبـالِ

أنا حقاً أدعيهم لِسَوادى وهـزُالسى

(أبونواس، ص ٥٧١)

وخلصه القول أن شعوبية أبى نواس ليست شعوبية عنصرية بل هى شعوبية بمعنى الأصل القائل بتساوى الشعوب و عندى أن أبانواس لا يفرق بين عربى و فارسى و بين مولى وسيد. ولكن الفرق واضحٌ عنده بين الدعى المتجاوز، و بين المتحضر المهذب، بين الغليظ و اللطيف و بين الفهيم و البليد و بين الظالم و العادل.

و أبونواس شاعر ذواقه، محبٌ للحياة، و ميال إلى الجمال و هو يمدح الإنسانية التى تعين عنده الشعور بالصفات المشتركة بين البشرية جمعاء.

نهاية المطاف فى حياة الشاعر:

ولد أبونواس الحسن بن هانىء فى الأهواز سنة ١٤٠هـ - علي الأرجح - من أب عربى و أمّ فارسيّة. فقد أباه فى السنّة الثانية أو السادسة من عمره فظلّ يتيماً. ثمّ انتقل إلى البصرة و نشأ فيها. قرأ القرآن و حذق فيه و أصبح أقرأ أهل البصرة. تخرّج فى الشعر علي والبة بن الحباب الأسدى و خلف الأحمر. ثمّ تبدّى و خالط العرب الخلّص، ففصح لسانه. عاد إلى الكوفة بعد سنة، فاختلف إلى أئمّتها فأخذ عنهم علوم اللغة. ثمّ توجه إلى بغداد و هو فى الثلاثين من عمره. اتّصل بالبرامكة فى أوّل أمره و فى أوّل خلافة الرشيد. ولكنه سجن بتهمة الزندقة. هرب إلى مصر بعد نكبة البرامكة ولجأ إلى أميرها «الخصيب» و مدحه. عاد إلى بغداد بعد سنة وأشهر. قبض عليه عند دخوله فى بغداد و سجن فى سجن الزنادقة حتى مات الرشيد. أطلقه الأمين من السجن بواسطة وزيره الفضل بن الربيع. اتّصل بالأمين و مدحه ولكنّه سجن عدة مرّات فى زمان الأمين بتهم مختلفة، منها المجون و الزندقة، إلى أن مات سنة ١٩٩ الهجرية و دفن فى مقابر الشونيزية ببغداد، و عمره تسع و خمسون سنة.

و أبونواس شاعر سهل، جديد المعانى و الألفاظ، حلو النكتة، و شعره مرآة صافية لعصره لكل ما فيه من القضايا السياسية و الاجتماعية و الدينية و الفلسفية.

ولكنّه لجأ إلى النظرّف و التظاهر بالمجون، كما ورد في بعض الكتب: «كان أبونواس في دعاويه يتماجن و يعبث». (ابن منظور، أخبار أبي نواس، ص ٣٥) و هذا هو قول أبي نواس في هذا الصعيد: و أمّا المجون، فما كلُّ أحدٍ يحسن أن يمجن، و إنما المجون ظُرف و لستُ أبعُدُ فيه عن حدّ الأدب و لا أتجاوز مقداره. «(ابن منظور، مختار الأغانى، ج ٣، ص ٢٠١) كما يقول:» (والله ما فتحتُ سراويلي لحرامٍ قطّ». (ابن عساكر، ج ٤، ص ٢٦٤)

إنه تماجنَ خوفاً من السلطة الجائرة التي كانت تحكم باسم الإسلام و اتخذ الخمرة رمزاً للتعبير عما يتمناه. ثارَ في أوّل أمره علي أسلوب القصيدة التقليدية، ثم علي التقاليد و الأعراف الاجتماعية البالية و طعن بسياسات الخلفاء.

عاش وحيداً في ظلّ خلافة حافلة بالرّماء و النفاق. تلك الخلافة التي تعيش التناقض بأوسع أشكاله، فخلف ظاهرها الأنيق باطن ملؤه الفساد، لكنّه يخفي في طيّات هذا الطلاء الخنّاب.

عاش غريباً دون أن يعرف أحد آلامه و تمنياته، و واجه حملات التشهير من جوانب شتّى و لا سيّما من ناحية الحكومة لشهرته الواسعة و حبّ الناس له و تهرّبته من البلاط. و مع هذا ترك لنا تراثاً خالداً، و هو شعره الخمرى بكلّ ما فيه من الأبعاد التقليدية و التجديديّة بنزعاتها الفنية والاجتماعية والسياسية والنفسية والأخلاقية و الروحية بحيث أصبح رائد الشعر الخمرى في الأدب العربي. وللتعرف علي خمريات أبي نواس يجب علينا أن نتعرف علي دور الظرف و التظاهر بالمجون و التماجن في تلك الفترة العباسية و لا سيما في عهد الخليفة هارون الرشيد. و لهذه الأشكال الثلاثة دور هام في الحكومات الدينية الجائرة علي مرّ العصور، و لا سيّما في العصر العباسي الأول. فمثلاً نرى بهلولاً - أعنى بهلول بن عمر الصيرفي الكوفي (المتوفى سنة ١٩٨هـ). الذي كان عالماً كبيراً ذا عقل و فير و هو من أصحاب الإمامين الصادق و الكاظم عليهما السلام - لجأ إلى التظاهر بالمجون حينما أراد هارون الرشيد أن يجعله قاضياً ليفتي له بقتل الإمام موسى الكاظم (ع) بدعوى أنّه يريد الخروج عليه. فتجانن و ركب قصبه يطوف

بها أزقة الكوفة، فقال الناس جُنَّ بهلول وكان في حالته تلك، ينتقد الرشيد انتقادات لاذعة، وأخباره تدلّ على أنه كان من أهل الموالاته والتشيع لأهل البيت(ع): «(بيضون، صص ٥-٦)»
 كما لجأ أبونواس إلى النظرف وإظهار المجون و كان من الشيعة واتخذ «التقية» مذهباً له. و
 من خلال القراءات الواسعة ينكشف لنا أن كثيرين من الشعراء و الأدباء اتخذوا النظرف في
 تلك الفترة طريقاً لتبيين أفكارهم و تماجنوا خوفاً من السلطة الجائرة التي كانت تحكم باسم
 الإسلام. و مع هذا قتل الكثيرون من الشعراء و الأدباء بتهمة الزندقة والخروج علي الحكم
 الديني مثل: ابن المقفع، و عبد الحميد الكاتب، و صالح بن عبدالقدوس، و بشار بن برد. ومكانة
 هؤلاء في معاداة العرب و انحيازهم إلى الشعوبية لا تخفي. الأمر الذي عرّضهم لهذه التهم التي
 كانت السلطات الدينية تتخذها وسيلة للوقوف في وجه كل من سوّلت له نفسه إظهار العداء
 للسلطة السياسية الحاكمة.

هذا هو النواسي الذي ميكننا الولوج إلى خمرياته من الكشف عن خفايا عصره المليء
 بالاضطرابات و التعقيدات. و غنى عن البيان أن خمرياته بحاجة إلى المزيد من الدرس والبحث
 لإمارة اللثام عن الزوايا الخفية في شعره وحياته مما لا يسعه هذا المقال. وعسي أن يعقب هذا
 المقال مقال آخر يعالج هذه الأمور.

المراجع:

القرآن الكريم.

- ابن الرشيقي القيرواني، الحسن، العمدة، مطبعة أمين هندية، القاهرة، ١٩٢٥م.*
ابن المعتز، عبدالله، طبقات الشعراء، تحقيق عبدالستار احمد فراج، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٥٦.
ابن خلكان، وفيات الأعيان، بتحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨
ابن عساکر، التاريخ الكبير، مطبعة الروضة، الشام ١٩٣٢م.
ابن قتيبة، الشعر والشعراء، مطبعة المعاهد، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٣٢م.
إبن منظور، أخبار أبي نواس، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع، بيروت، ١٩٩٥م.
 _____، *مختار الأغاني في الأخبار والتهاني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦م*
 أبونواس، ديوان، احمد عبدالحميد الغزالي دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ

- الأثرى، محمد بهجة، مقدمة تفسير أرجوزة أبي نواس، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٦٦م
امين، احمد، ضحى الاسلام، النهضة المصرية، الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٩٥٦م.
الأمين، محسن، أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٣م.
بيضون، لييب بهلول الكوفى، مؤسسة البلاغ، بيروت، ١٩٩٨م.
حسين، طه، حديث الأربعاء، دارالمعارف بمصر، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٦م.
الحموى، ياقوت معجم البلدان، دار بيروت، ١٩٨٨م..
الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٣١.
صدقى، عبدالرحمن، ابونوس، قصة حياته في جده و هزله، لاط، لاتا.
الفاخورى، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربى، دارالجيل، بيروت، لاط، لاتا.
المعري، ابوالعلاء رسالة الغفران، شرحها و حققها الدكتور على شلق، دارالقلم، بيروت، ١٩٨٣.
المقدسى، أمين، أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى، دارالعلم للملايين
، الطبعة السابعة عشرة، بيروت، ١٩٨٩.